

Tafsir Dergisi - Tafsir Journal

e-ISSN: 2792-078X

Cilt/Volume: 4, Sayı/Issue: 1 (Haziran/ June 2024): 55-64

Abbasi Edebiyatında Ahmaklık, Gaflet ve Delilik (İbnü'l-Cevzî ile İbn Habîb en-Nîsâbûrî Arasında Karşılaştırmalı Bir Çalışma)

الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي
دراسة مقارنة بين ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري

Sawsan Alafyoni

Bilecik, Türkiye

e-mail: sawsanalafouni@gmail.com

<https://orcid.org/0000-0001-5412-2407>

Prof. Dr. İsmail Hakkı Sezer

Aksaray Üniversitesi,

e-mail: ismailhakkusezer@aksaray.edu.tr

<https://orcid.org/0000-0002-1385-2013>

Makale Bilgisi/Article Information

Araştırma Makalesi/Research Article

Geliş Tarihi/Received: 15.04.2024

Kabul Tarihi/Accepted: 25.05.2024

Yayın Tarihi/Pub Date: 30.6.2024

Atıf/Cite as

Sawsan, Alafyoni, Abbasi Edebiyatında Ahmaklık, Gaflet ve Delilik (İbnü'l-Cevzî ile İbn Habîb en-Nîsâbûrî Arasında Karşılaştırmalı Bir Çalışma), Tafsir Dergisi 4/1 (Haziran 2024), 55-64

Sawsan, Alafyoni الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي دراسة مقارنة بين ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري Tafsir Journal 4/1 (June 2024), 55-64

İntihâl/Plagiarism

Bu makale, en az iki hakem tarafından incelendi ve intihâl içermediği teyit edildi/This article has been reviewed by at least two referees and scanned via a plagiarism software. Published by

Tafsir Journal, Turkey.<http://www.tafsirdergisi.com/index.php/tafsir/index>

Bu eser Creative Commons Atıf-GayriTicari 4.0 Uluslararası Lisansı ile lisanslanmıştır

Abbasi Edebiyatında Ahmaklık, Gaflet ve Delilik (İbnü'l-Cevzî ile İbn Habîb en-Nisâbü'rî Arasında Karşılaştırmalı Bir Çalışma)*

Öz

Ahmaklık, gaflet ve delilik edebiyatı Arap edebiyatında erken önemden itibaren var olan popüler edebiyat türlerinden biri olup Abbasi döneminde daha olgun bir şekil almaya başlamıştır. Bir yandan bu tanımlamalara sahip insanlara karşı hoşgörülü olunması, bir yandan da toplumdaki ahmaklık ve gafillik çemberinin genişlemesi, cahilleri, ahmakları ve delilik iddiasında bulunanları da kapsamaktadır. el-Câhiz (255/869), Ebu'l-Ferec el-İsfahânî (356/967) ve diğerleri gibi Abbasi yazarları, edebiyat ansiklopedilerinde bu kişilerin haberlerine önem vermişler ve İbn Ebi'd-Dünyâ ve İbnü'd-Darrâb gibi bazı alimler müstakil eserleri onlara ayırmışlardır. Bu olguyu araştıran ve inceleyen imamlar arasında iki büyük alim vardır. Bunlar, *Ahbâru'l-hamkâ ve'l-muğaffelîn* adlı kitabında genel olarak ahmaklar, gafiller ve delilerle ilgili haberleri ele alan Ebu'l-Ferec İbnü'l-Cevzî ve özel olarak ele alan İbn Habîb en-Nîyâbü'rî bunları "akıllı deliler" adlı kitabında kategorize etmiştir. Bu makale, Abbasi edebiyatında ahmaklık, gaflet ve delilik olgusunu hakikat ve iddia açısından aydınlatmaya çalışmakta ve İbnü'l-Cevzî ve İbn Habîb'in kitaplarında anlatıldığı şekliyle bazı detaylarıyla ele almaktadır. İki kitabın genel özellikleri, bölümleri, yazarların bunlara yaklaşımları ve yazma motivasyonları daha sonra iki kitaba eleştirel bir gözle bakmaya, edebi ve nesnel açıdan dengelemeye çalıştı.

Anahtar Kelimeler: Arap Dili ve Belagati, Abbasi Edebiyatı, Ahmaklık, Gaflet, Delilik, İbnü'l-Cevzî, İbn Habîb.

الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي دراسة مقارنة بين ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري

ملخص

يُعدُّ أدبُ الحمق والغفلة والجنون أحدَ ألوانِ الأدبِ الشعبي الذي كان موجوداً منذ فترة مبكرة في الأدب العربي، إلا أنَّه بدأ يأخذ شكلاً أكثرَ نضجاً في العصر العباسي، وقد ساعد في ذلك النظرةُ الإسلاميةُ المتسامحةُ مع الأشخاصِ المتصفين بهذه الأوصافِ من جهة، وتوسُّعُ دائرة الحمق والغفلة في المجتمع لتشمل المتغافلين والمتحامقين ومدَّعي الجنون.

وقد اهتمَّ الأدباءُ العباسيون كالجاحظ (255/869م) وأبي الفرج الأصفهاني (356/967م) وغيرها في موسوعاتهم الأدبية بأخبار هؤلاء الأشخاص، وأفرد لهم بعضُ العلماءِ مؤلفاتٍ مستقلة كابن أبي الدنيا وابن الضَّرَّاب. وكان من بين الأئمة الذين تناولوا هذه الظاهرة بالدراسة والفحص، علما كبيران؛ هما: أبو الفرج ابن الجوزي الذي تناول أخبار الحمقى والمغفلين والمجانين على وجه العموم في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين"، وابنُ حبيب النيسابوري الذي تناول فئةً خاصَّةً منهم في كتابه "عقلاء المجانين".

وتحاول هذه المقالة أن تُسلِّطَ الضوءَ على ظاهرة الحمق والغفلة والجنون في الأدب العباسي، من حيث الحقيقة والآداء، وتتناولها بشيءٍ من التفصيل كما سطرهما كتابا ابن الجوزي وابن حبيب، وذلك من خلال الوقوف على الملامح العامة للكاتبين، وفصولهما، ومنهجي المؤلفين فيهما، ودوافعهما للتأليف، ثمَّ حاول الباحث أن ينظرَ إلى الكاتبين نظرةً نقديةً، مع الموازنة بينهما من الناحية الأدبية والموضوعية.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية وبلاغتها، الأدب العباسي، الحمق، الغفلة، الجنون، ابن الجوزي، ابن حبيب.

الحمد لله رب العالمين

مقدمة

نظرتُ الحضارةُ الأوربيةُ في العصر الكلاسيكي إلى المرضى النفسيين على أنهم عناصرُ ضارةٌ غيرُ قابلةٍ للاندماج في المحيط الاجتماعي، وأهمُّ عبارةً عن حالاتٍ شيطانيةٍ تحدُّ المجتمع، ولذلك كان لابدَّ من التخلص منهم عن طريق العزل أو الحبس أو التَّقي، ويشدُّ لنا التاريخُ الأوربيُّ فصولاً من مآسي التعامل الوحشي مع الحمقى والمجانين، وكيف كانت "سفن الحمقى" تُستخدَمُ لإرسال المرضى النفسيين إلى عالمِ الرعب خارجِ حدودِ المدن، أو يُخصَّصُ لهم المستشفيات والسجون الخاصة حيث يلاقون ألوانَ العذاب والشقاء.¹

في ذلك الوقت نفسه كانت الحضارة الإسلامية تتعامل مع هؤلاء المرضى بقدرٍ كبيرٍ من التسامح والمرونة والرَّخابة، بل كانوا في كثيرٍ من الأحيان مصدرراً للطَّرَافَةِ والسعادة في المجتمع، وربما كان الإحسان إليهم والرفق بهم وسيلةً لاستجلاب البركة والحصول على مرضاة الله تعالى. وتذكر دائرة المعارف البريطانية أنَّ أقدم مستشفيات

* Bu makale Sawsan Alafyonî'nin çalışması devam eden "Abbasi Edebiyatında İmta' Ve Müanesane Sanatı" adlı Aksaray Üniversitesi doktora tezinden üretilmiştir.

1 ميشيل فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بن كراد، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006م)، 23.

الأمراض العقلية في العالم تم إنشاؤها في بغداد والقاهرة ودمشق، وكان المرضى النفسيون والعقليون يتلقون العلاج في البيمارستانات، وكان أول بيمارستان قام في العالم الإسلامي في مدينة دمشق، بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك عام 88هـ/707م.¹ ولم يتوقف اهتمام المسلمين بالمرضى النفسيين عند الرعاية الطبية والصحية فقط؛ بل تعداه إلى دراسة أحوالهم، وتصنيف درجاتهم، وجمع أخبارهم، وتبويب آثارهم، وحفظ أشعارهم ومقولاتهم، وكتابة لطائف الحكمة التي جرث على ألسنتهم. وخرزت كتب التراث العربي بالكثير من النصوص التي تؤرخ لحكاياتهم، وتصوّر حياتهم الاجتماعية في قالبٍ ساخرٍ وممتعٍ، خصوصاً أنهم في كثيرٍ من الأحيان كانوا يظفرونهم بتجاوزون حدود الكلام مع ذوي الشأن والسلطان، دون أن يخافوا عواقب المحاسبة. ومما تميّزت به الحضارة الإسلامية، انتشار الاهتمام بأدب الحمق والغفلة والجنون في الأدب العربي في وقتٍ مبكرٍ؛ فقد روى الإمامان المحدثان البيهقي (458هـ) في "منابغ الشافعي" والنووي (676هـ) في "تهذيب الأسماء واللغات" أن محمد بن عبد الحكم - وكان تلميذاً للشافعي - قال: "سمعت الشافعي يقول: أروي لثلاثمئة شاعرٍ مجنون".²

وظنّ العربُ قديماً إلى النبوغ الأدبي والفني عند هؤلاء الناس حتى إنَّ عبارة "الفنؤ الجنون" المعروفة في عصرنا، قديمةٌ وجدناها عند الزخشي المفسر المعتزلي (539هـ) الذي جعل أحد مقاماته المشهورة بعنوان: "الجنون فنون، والفنون جنون"، كما ينقل الجاحظ عن طائفة ممن يسميهم "المسجدين" أنهم كانوا يعدّون من "لم يرو أشعار المجانين أنه ليس من الرواة".³

وذكر ابن النديم (384هـ) في "الفهرست" أنَّ أبا الحسن المدائني (225هـ) ألف كتاباً سماه "كتاب الحمقى"، وقال ابن حبيب النيسابوري (406هـ): كنت في حادثة سني سمعت كتباً في هذا الباب، مثل كتاب الجاحظ (255هـ) وكتاب ابن أبي الدنيا (281هـ) وغيرهم.⁴ وهذا الكلام يدلُّ على أنَّ للجاحظ وابن أبي الدنيا كتباً خاصةً بالمجانين لم تصل إلينا.⁵

وحصّصت كتبُ الأدب الجامعة فصولاً وأبواباً تناولت موضوعات الحمق والغفلة والجنون، كما نجد عند الجاحظ (255هـ) الذي عقّد في كتابه "البيان والتبيين" باباً تحت عنوان "كلام التوكّي" ⁶ والموسوسين والحقّة والأغبياء، وابن عبد ربّه (328هـ) في "العقد الفريد" في باب (أخبار الممتّورين⁷ والمجانين)، وأبي الفرج الأصفهاني (356هـ) في الأخبار المتفرقة التي ساقها في كتاب "الأغاني". ومن المصنّفات المستقلة التي كُتبت في مرحلةٍ لاحقةٍ حول هذا الموضوع، كتاب "عقلاء المجانين" لابن حبيب النيسابوري (406هـ)، والفائق في أسماء المائق⁸ لابن الأنباري (577هـ)، وكتاب "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي (597هـ).⁹ ولعلّ من أقدم ما وصل إلينا من التصانيف المستقلة في هذا الباب كتاب "عقلاء المجانين والموسوسين" لأبي محمد الحسن بن إسماعيل الصّراب (392هـ)، لكنه رسالة صغيرة الحجم لا تتجاوز ثمانين ورقاً، والأخبار الواردة فيه مذكورةٌ في كتبٍ أدبيةٍ أخرى، ولذلك قلَّ الاهتمام به.¹⁰

ويكاد يتفق الباحثون على أنَّ من أهم ما كتب في العصر العباسي حول هذا الموضوع؛ كتابا "عقلاء المجانين" لابن حبيب النيسابوري، و"أخبار الحمقى والمغفلين" للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، ولذلك تتخذ هذه المقالة من دراسة هذين الكتابين موضوعاً لها، وتهدف إلى تسليط الضوء على ظاهرة الحمق والغفلة والجنون في العصر العباسي بشكلٍ عامٍّ، وأنَّ تعكس كيفية التعامل معها كما سطرهما هذان الكتابان على وجه الخصوص، وتهدف أيضاً إلى الوقوف على الملامح العامة للكتابتين، ومنهجي المؤلفين، ودوافعهما للتأليف، ومن ثمَّ النظر إلى الكتابين نظرةً نقديةً، مع الموازنة بينهما من الناحية الأدبية والموضوعية.

وتتبع أهمية البحث من كونه يبيّن نظرة المجتمع العباسي إلى المصابين بهذه الآفات، ويحاول تقديم مقارنةٍ أدبيةٍ بين إمامين زاهدين فيما يتعلق بموقفهما من هذه الظاهرة الطرفية أدبياً واجتماعياً؛ فعلى الرغم من أنَّ كلاً منهما تناولها من زاويةٍ مختلفةٍ عن الآخر، إلا أنَّ كلاً منهما ابتعد عن السخرية والتقصيص التي تشوّت مناقشة أمثال هذه الموضوعات عادةً، وبهذا الشكل يحاول هذا البحث أن يقدّم إضافةً جديدةً للدراسات الأدبية العربية عموماً، ولأدب العصر العباسي على وجه الخصوص.

ونشير هنا إلى وجود بعض الدراسات السابقة المتعلقة بالموضوع؛ ومنها:

- بحث بعنوان "الفنائية وخطاب الحمق والجنون في التراث العربي" لسمر الديوب، وهو بحث منشور على موقع Hexa Times <https://hexatimes.com/articles-view.php?id=101>، لكنه تناول الحمق والجنون في التراث العربي عموماً دون تخصيص بالعصر العباسي، كما أنه، لم يفصّل القول فيما يتعلق بابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري.

- بحث بعنوان "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم" لفيصل أبو الطيف، وهو بحث منشور في مجلة قضايا الأدب عام 2016، <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/80301>، وهو كالمبحث السابق في أنه يتحدث عن الحمق والجنون في التراث العربي عموماً، كما أنه يتناول الموضوع، من حيث أنَّه ظاهرة اجتماعية أكثر منها أدبية.

- مقال بعنوان "نقد كتاب: مقالات في أدب الحمقى والمتحمقين لمؤلفه أحمد الحسين" لحسين حمدان العساف، منشور على موقع ديوان العرب، <https://2u.pw/evjbmAFb>، وهو مقالٌ عامٌّ أيضاً، وتناول الموضوع من حيث كونه ظاهرة اجتماعية لا أدبية، إلا أنَّه تميّز بأنّه عقّد مقارنةً مختصرةً بين ابن الجوزي وابن حبيب، لكنّها مقارنةً مختصرةً لا تفي بالمقصود من البحث هنا.

1 وليد بدران، "اليوم العلمي للصحة النفسية: قصة أقدم مستشفى للأمراض النفسية في العالم"، BBC NEWS، (الوصول 10-10-2021).
2 مراسلون، "الشافعي روى 300 شاعر مجنون والذي سمع نواذرهم.. مجانين العرب ثور وأولياء وعاشقون"، (الوصول 10 أكتوبر 2019).
3 المرجع السابق.
4 الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، تحقيق: محمد السعيد بسويو زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1985م)، 15.
5 مراسلون، "الشافعي روى 300 شاعر مجنون والذي سمع نواذرهم.. مجانين العرب ثور وأولياء وعاشقون".
6 الأتوك الأحمق وجمعه التوكّي. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د. ت.)، "توك"، 501/10.
7 المروّز من عُلب على عقلي. ابن منظور، "مرر"، 165/5.
8 المائق الهالك حقاً وغباوة. ابن منظور، "موق"، 350/10.
9 فيصل أبو الطيف، "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم"، قضايا الأدب، 1/1 (كانون الأول 2016م)، 68.
10 الحسن بن إسماعيل الصّراب، عقلاء المجانين والموسوسين، تحقيق: إبراهيم صالح، (دمشق: دار البشائر، 1424هـ/2003م)، مقدمة التحقيق، 13-14.

- مقال بعنوان "كتاب عقلاء المحانين لابن حبيب النيسابوري دراسة في الأنساق الثقافية"، لعادل القباطي، وهو بحث منشور في مجلة فصل الخطاب عام 2022، <https://bucket.theses-algerie.com/files/repositories-dz/2363775022781523.pdf> ، تناول فيه صاحبه الأنساق الثقافية في كتاب النيسابوري، وصنّفها ضمن ثلاثة أنساق؛ نسق المحبة، والأنساق الاجتماعية، والأنساق السياسية، ولم يتناول فيها الجانب الأدبي.

- كما نجد أيضاً بعض المقالات المنفرقة على المواقع الإلكترونية على الشابكة، تحدّثت عن الكتابين بصورة تعريفية، وتناولت هذه الظواهر بشكل عام، وقد تمت الاستعانة ببعضها عند الحاجة في أثناء هذا البحث مع العزو إليها.

واستخدمت المقالة المناهج الاستقرائية والوصفية والتحليلية، لفهم ظاهرة الحمق والتحامق في الاستعمال اللغوي عموماً، وفي الأدب العباسي على وجه الخصوص، ولتحليل منهجي ابن حبيب وابن الجوزي، ورصد مواضع الاتفاق والاختلاف بينهما، وذلك من أجل تقديم إضافة جديدة للدراسات الأدبية في العصر العباسي حول هذا الموضوع.

1. الحمق والغفلة والجنون؛ مقارنة لغوية

الحق في لغة العرب ضدّ العقل، وحقق فلان قلّ عقله¹. وثمة تعريف آخر يراد أصل الحق إلى إتحاق السوقي إذا كسدت، فكأنه فسدت عقله حتى كسدت². والغفلة هي غيبوبة الشيء عن بال الإنسان، وعدم تدكّره له. والتغافل: تعمّد الغفلة³.

أما الجنون فهو مصدر من (الجن) وهو الشتر، وفي الحديث: "جنّ عليه الليل" أي ستره، وسمي المجنون لاستتار عقله⁴. ويشمل الجنون أيضاً حالة مخالفة الناس في تقاليدهم وعاداتهم، والإتيان بما ينكرونه ويستهجونه، ولذلك سمّت الأمم أنبياءها مجانين لأنهم خرجوا عليهم وناذروهم وأتوا بخلاف ما يعرفون⁵. ورمى مشركو مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسحر والجنون، ووردت لفظة مجنون في القرآن الكريم أحد عشر مرة⁶.

ويلاحظ هنا الاتساع الكبير في الاستعمال اللغوي لمعاني الحمق والجنون والغفلة؛ فعلى سبيل المثال نجد غزارة عجيبة في كتب المعاجم للألفاظ الحاملة لهذه المعاني، ففي معجم "لسان العرب" وحده ثمة أكثر من 400 لفظة تدل على معاني الحمق، وحوالي 100 لفظة تدل على الجنون، وعقد ابن الجوزي في "أخبار الحمقى والمغفلين" باباً خاصاً في (ذكر أسماء الأحق)، ذكر منها: الرّقع، المائق، الحرف، المأفون، المأفوك، الأخرق، وغيرها. حتى قيل: لو لم يكن من فضيلة الأحق إلا كثرة أسمائه لكفى⁷.

وعلى الرغم من أنّ المجنون عادةً يكون أشدّ اضطراباً؛ إلا أننا من ناحية الاستعمال نجد أنّ الحمق والغفلة والجنون تكاد تمثّل حقلاً واحداً تزول فيه الحواجز المعرفية؛ فلا يكاد المرء يجذّ فرقاً واضحاً بين هذه الألفاظ في كتب الأدب، فالاسم الواحد يُعبّر به الأحق والمغفل والمجنون في آبي واحد على السواء دون تفرقة، ولا يجد الأدباء أدنى حرج حين يضعون لفظة من هذه الألفاظ مكان أخرى، فيتكلم الواحد منهم عن مجنون من المجانين، ثم يصفه بالأحق، ويتناول أحد الحمقى، ثم يقول عنه: "أجرّ الناس"⁸. وذكر ابن الجوزي الحمق والغفلة في سياق واحد فقال: معنى الحمق والتغفل هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود⁹.

والسبب في ذلك اشتراك المغفل والأحق والمجنون في جملة من الأوصاف التي تخالف العرف الاجتماعي العام الذي يضبط تصرفات العقلاء، ولأنّ المنطق الذي يستعمله هؤلاء الأشخاص هو منطق واحد مع اختلاف الدرجة، ولذلك فإنّ الأدباء عندما لم يجدوا بين المغفل والأحق والمجنون فرقاً يستحقّ الذكر من الناحية الأدبية؛ فإنهم أدرجوا أخبارهم ضمن سياق واحد في كتبهم¹⁰.

وما يتصل بالحمق والغفلة والجنون؛ ما يُطلق عليه التحامق والتغافل؛ بمعنى ادعاء الغفلة أو الجنون، أو أنّ يُظهر المرء نفسه غيباً أو أحمقاً؛ وقد يكون الدافع لذلك الاستغراق في التصوف¹¹، أو اليأس من إصلاح الواقع، فيقوم الشخص بادعاء الحمق هرباً من الواقع السيئ الذي يعيش فيه، وقد يتحامق الشاعر ليحصل على الجوائز الشعرية التي لا يمكنه الوصول إليه بأشعار الجذّ، خصوصاً إذا كان معاصراً لفحول الشعراء، أو يتحامق بقصد الإفلات من قبضة السلطة الظالمة¹².

2. الإمامان ابن الجوزي وابن حبيب النيسابوري؛ نظرة تعريفية

1.1. الإمام ابن الجوزي

1 ابن منظور، "حق"، 67/10.
2 المرجع السابق.
3 ابن منظور، "غفل"، 497/11.
4 ابن منظور، "جنن"، 92/13.
5 النيسابوري، عقلاء المجانين، 8.
6 مراسلون، "الشافعي روى 300 شاعر مجنون والذهبي سمع نواذرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون".
7 أحمد خصصوسي، الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1413هـ/1993م)، 14، 42؛ عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، تحقيق: عبد الأمير مهنا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1410هـ/1990م)، 28.
8 أحمد خصصوسي، الحمق والجنون، 25.
9 ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، 23.
10 سمر الديوب، "الثباتية وخطاب الحمق والجنون في التراث العربي"، Hexa Times (الوصول 06-05-2023)؛ فيصل أبو الطفيل، "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم"، 68.
11 لا تقتصد الباحثة هنا أنّ التصوف هو حالة من حالات الجنون؛ بل المقصود الإشارة إلى حالات خاصة استغرق فيها بعض المتصوفة بحجة الله تعالى فدخلوا في حالة من الغياب عن الواقع، وقد ذكر ابن حبيب النيسابوري طرفاً من أخبار هؤلاء كما سيأتي.
12 مراسلون، "الشافعي روى 300 شاعر مجنون والذهبي سمع نواذرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون"؛ رياض قزينة، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، (بيروت: المكتبة العصرية، 1998م)، 260.

يعود نسب الإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي الحنبلي إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولد في العراق واشتهر بابن الجوزي، لوجود شجرة
جوزي في بيته، وكانت الشجرة الوحيدة في البلدة.¹

نشأ تيمماً في عائلة فضلى وعلم، وتفرغ منذ طفولته لطلب العلم، وتلمذ على يد عددٍ من كبار علماء عصره، وعُرف عنه الزهد والورع، والابتعاد عن أماكن
الاختلاط بالناس، وأسس مدرسةً في بغداد، وأوقفَ فيها مكتبةً كبيرةً، كان علامة عصره في التاريخ والحديث وتَمَيَّز بغزارة إنتاجه العلمي، وكثرة مصنفاته التي جاوزت
أربعمئة مصنف ما بين كتابٍ ضخم ورسالة صغيرة في التفسير والفقه والتاريخ والسيرة والأدب.²

وكان أوحَدَ زمانه في الوعظ، وقيل إنَّه حضر مجلسه في بعض الأوقات مائة ألف، وقال في آخر عمره: كُتِبَ بإصبعي هاتين ألفي مجلدة، وتاب على يدي مائة
ألف، وأسلم على يدي عشرة ألف يهوديٍ ونصرانيٍّ، وتوفي في مدينة بغداد عام 597هـ بعد أن قارب التسعين رحمه الله تعالى.³

2. الإمام ابن حبيب النيسابوري

لم يبلغ الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري الرتبة التي بلغها الإمام ابن الجوزي، وعلى الرغم من ذلك كان إماماً في القراءات والتفسير، عارفاً بالمغازي والسيرة،
أديباً نحوياً زاهداً واعظاً، وله التصانيف في ذلك، وروى عنه الإمام الحاكم صاحب المستدرک، والإمام البيهقي، وتعددت مواهبه حتى إنه تقدّم في الطب، وكان كرامياً
المذهب ثم تحوّل شافعيّاً.⁴

ومن لطيف شعره:

بمن يستغيث العبدُ إلا برَبِّه
ومن مالِك الدنيا ومالك أهلها
ومن يفتي عند الشدائد والكرب
ومن كاشف البلوى على البعد والقرب
ومن يدفع الغمَّاء وقت نزولها
وهل ذاك إلا من فعَّالِك يا ربِّي⁵

انتشر عنه العلم الكثير بنيسابور وسارت تصانيفه الحسان في الآفاق، وأشهر كتبه "عقلاء المجانين" الذي تناولوه في هذا البحث، وتوفي سنة (406هـ) رحمه الله
تعالى.⁶

3. "أخبار الحمقى والمغفلين" و"عقلاء المجانين"؛ قراءةٌ وصفيّة

1.3. "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي

يؤكّد ابن الجوزي في "أخبار الحمقى والمغفلين" على فكرة التوازي بين حركة العقل والجنون، فبيّن في مقدمة كتابه أنه بعد أن شرع في كتابه الآخر "أخبار الأذكىاء"
أثر أن يجمع أخبار الحمقى والمغفلين لثلاثة أسباب:

الأول: أن العاقل إذا سمع أخبارهم؛ عرف قدرَ نعمة الله عليه، فحسنته ذلك على شكر المنعم.

الثاني: أن ذكرَ المغفلين بحثٌ المتيقظ على اتقاء أسباب الغفلة إذا كان ذلك داخلاً تحت كسبه، وأما إذا كانت الغفلة مجبولةً في الطباع، فإنها لا تكاد تقبل التغيير.
والثالث: ترويح النفس بحكاية أحوال هؤلاء الناس، فإن النفس قد تمكّل من المداومة على الجديّة، وترتاح إلى بعض اللهو المباح.⁷

وهكذا جمع ابن الجوزي طائفةً من الطرائف وال نوادر التي تناقلها الناس عن الحمقى والمغفلين؛ لأنه رأى أن الشيء يُعرفُ بضدّه. وهذه المعرفة من أبلغ وسائل التعليم،
والترغيب في تحسن السلوك، فضلاً عن دورها في إدخال البشاشة والفرح على النفوس.

قسّم ابن الجوزي كتابه إلى أربعة وعشرين باباً، بدأها بمقدمة عن الضحك، وأنه مقبولٌ بل ومطلوبٌ ما دام في حدود الاعتدال، واستدلّ على ذلك من السنة النبوية
الشريفة، ثم بيّن معنى الحمّاق، وأسماء الأحمق، ومرادفاته المختلفة، ثم شرح صفات الأحمق وأحواله، واختلاف درجات الحمق والغفلة بين الموصوفين بهذه الصفات، وفوّق
بين الحمق الذي هو "الغلط في الوسيلة مع صحة المقصود"، والجنون الذي هو "عبارة عن الخلل في الوسيلة والمقصود جميعاً"، وميّز بين الحمّاق الغريزية التي لا أمل في
الخلاص منها، والحمّاق "المكتسبة".⁸

ولم يُقوِّم ابن الجوزي فرصة التحذير من صحبة الحمقى، ومن ذلك ما نقله عن ابن زياد أنه قال: قال لي أبي: يا بني أُرِّم أهل العقل وجالسهم، واجتنب
الحمقى، فإنّي ما جالستُ أحمقاً فمستُ إلا وجدتهُ النَّقصَ في عقلي.⁹

وأرشد إلى الحكمة في التعامل مع الحمقى، إذ لا ينبغي الغضبُ منهم؛ فمن غضب من الحمقى كثرَ غمُّه،¹⁰ ونقل عن حكيمٍ قوله: ليس كلُّ أحدٍ يحسن يعاملُ
الأحمق، وأنا أحسبُ أعمامه، قيل له كيف؟ قال: أُنحسُّه حتى يطلب الحقَّ بعينه، إذ متى أعطيتَه حقّه طلب ما هو أكثرُ منه.¹¹

1 محمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م)، 352/22.

2 المرجع السابق؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م)، 316/3.

3 محمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ/1987م)، 291/42.

4 خليل بن أبيك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط - تركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م)، 150/12؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 237/17.

5 الصفدي، الوافي بالوفيات، 150/12.

6 الذهبي، سير أعلام النبلاء، 237/17.

7 ابن الجوزي، أخبار الحمقى، 14.

8 المرجع السابق، 23.

9 المرجع السابق، 38.

10 المرجع السابق.

11 المرجع السابق، 40.

ثم انطلق بعد ذلك في رحلة ممتعة مع قُرَّائه يحكي لهم حكايات متنوعة عن عن طوائف من الحمقى والمغفلين رجالاً ونساءً؛ فكانَ مِنْهُم المَعْلَمون والرُّوَّاء والقُرَّاء والزُّهاد، بل كان منهم أيضاً الوُلاة والأمرء والقضاة.

وأول الحمقى عند ابن الجوزي هو إبليس، لأنه ليس بعد غفليته غفلةً، ولا بعد حماقته حماقة؛ لأنه اغتر بنفسه وتكبر على ربه، بعد أن كان متعدياً مؤذناً للملائكة، ولم يتوقَّف عند حسد آدم عليه السلام، ولكنه خرج إلى الاعتراض على المالك بالتخطئة للحكمة!¹

وبالوقوف على كتاب ابن الجوزي نجده يقسم حمقاه حسب خطورة الحمق الذي وقعوا فيه، وكأنه جعلهم على قسمين رئيسيين: أولهما قسم حمقى الخاصة، وهم الأخطر على المجتمع، وذلك بسبب خطورة الخطأ الذي وقعوا فيه، فخطورتهم تكمن بتأثيرهم في المجتمع والعامّة، ولذلك نجد ابن الجوزي يبدأ بسرد المغفلين من القراء والمُصنِّفين، فخطأهم وقع في المصدر التشريعي الأول وهو القرآن الكريم، فأى خطأ أعظم من الجهل بكلام الله تعالى والخطأ فيه؟!.

ومن ذلك ما ذكره عن بعض القراء أنه كان يقرأ: من مصحف في حجره: والله ميزاب السموات والأرض، فقال له أحدهم: يا شيخ ما معنى والله ميزاب السموات والأرض؟ قال: هذا المطر الذي نراه، فقال: ما يكون الصحيف إلا إذا كان بنفسير! يا هذا إما هو: "ميراث السموات والأرض" فقال: اللهم اغفر لي، أنا أقرؤها هكذا منذ أربعين سنة، وهي في مصحفي هكذا.²

ثم ذكر المغفلين الذين أخطأوا في المصدر التشريعي الثاني بعد كتاب الله وهو السنة النبوية، فذكر المغفلين من رواة الحديث ومصنفيه، ومن ذلك ما رواه الشافعي أنه قيل لعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: حدثك أبوك عن جدك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن سفينة نوح طافت بالبيت سبعاً وصلت خلف المقام ركعتين؟ قال: نعم.³

وإذا تدكّرنا أن المصدر الثالث للتشريع هو الاجتهاد، فإن هذا يفسر إتيانه بعد ذلك على ذكر طوائف من المغفلين من القضاة والأمرء والولاة ثم الكُتَّاب وغيرهم، ومن ذلك ما رواه عن بعض الرواة: تقدّم رجلان إلى أبي العتوف قاضي حرّان فقال أحدهما: أصلح الله القاضي، هذا ذبح ديكاً لي فخذ لي بحقه، فقال لهما القاضي: عليكما بصاحب الشرطة فإنه ينظر في الدماء!⁴

ويقف الباحث في كتاب ابن الجوزي على طوائف أخرى من الحمقى والمغفلين، من المعلمين والقصاص والمتزهدين والأعراب وغيرهم، ولعل الجامع بينهم أهم فئة مؤثّرة في المجتمع، يجتمع العوامّ حولهم، يستأنسون بفكرهم، ويأخذون من علمهم، ويتفكّهون بحديثهم.

ولعل دافع ابن الجوزي لاسقاطه الضوء على حمقى القراء والمحدثين والقضاة وغيرهم شيوع هذا النوع من الجهل في زمانه وغيره ابن الجوزي على دينه وهو الامام المحدث الفقيه، فكانه رأى من هؤلاء جرأة على مقام الله وكتابه وجرأة على مقام النبوة، واجتهاد وقضاء بجهالة، فمارس سلطته العلمية والوعظية للتنبيه على أخطاء هؤلاء وتفجير الناس منهم ومن سلوكياتهم.

أما القسم الثاني من الحمقى عند ابن الجوزي فهم حمقى العامة، فهم وإن كانوا حمقى فحتمتهم عائد عليهم، ولا يؤثر على غيرهم، وأدخل في زمرة هؤلاء الحمقى الجهلة بقواعد اللغة العربية، والبنى الإعرابية، والنظام الشعري، ومناسبة الخطاب للمخاطب، وربما كان دافعه لذلك المكانة السامية للغة العربية عند العرب خاصة والمسلمين عامة، فهي لغة القرآن الكريم، ولغة السنة النبوية، ومما ذكر عن هؤلاء ما رواه أبو زيد النحوي قال: قال رجلٌ للحسن: ما تقول في رجلٍ ترك أباه وأخيه؟ فقال الحسن: ترك أباه وأخاه! فقال الرجل: فما لأباه وأخاه؟ فقال الحسن: فما لأبيه وأخيه! فقال الرجل للحسن: أراي كلما كلمتك خالفتي؟⁵

ومما يلاحظ هنا أن ابن الجوزي تأثر بالفكرة القديمة التي تربط بين شكل الجسم والعقل، فذكر جملة من الصفات الخلقية التي تدل على الحمق، ومن ذلك ما نقله عن بعض الحكماء أن الرأس إذا كان صغيراً رديء الشكل دلّ على رداءة في هيئة الدماغ،⁶ وإذا كانت العين عظيمة مرتعدّة فصاحبها كسلانٌ بطالٌ أحمق، ومن طالث عنقه ورقت، فهو أحمق جبان، ومن كان أنفه غليظاً متملأاً فهو قليل الفهم، وإذا كان الرجل عظيم الهامة طويل اللحية فاحكم عليه بالرقاعة.⁷

وترى الباحثة أن الصفات الجسدية لا علاقة لها بالصفات العقلية، وهذا يخالف الواقع فبعض الناس يتصف بمثل هذه الصفات لكنه معدود في جملة العقلاء والأذكياء، كما أن هذا القول لا يستند إلى دليل شرعي صحيح، إلا ما ورد في بعض الآثار الضعيفة والموضوعة التي نرى أن مناقشتها هنا يمكن أن تخرج بالبحث عن سياقها وأهدافه.

وعلى الرغم من ذلك فلا يُنكر أن الأحمق والمجنون قد تعرض له بعض الصفات التي تنتج عن قلة اهتمامه بجوارحه كسبلان أعابيه، وارتخاء شفتيه، وتدلّي لسانه، واضطراب حركاته، وهذا أمرٌ لا حظّه بعض المفكرين⁸ إلا أنه لا يعني أن الصفات الوراثية في الجسم كحجم الرأس، ولون العينين، وطول القامة وقصرها ونحو ذلك؛ لها تأثيرٌ في عقل الإنسان.

2.3 "عقلاء المجانين" لابن حبيب النيسابوري

بدل عنوان كتاب النيسابوري "عقلاء المجانين" على التناقض الظاهري؛ فهم عقلاء ومجانين في الوقت نفسه، والعقل يتداخل مع الجنون بشكل يصعب معه الفصل بينهما؛ يقول النيسابوري في مقدمة الكتاب: وكما شاب صفات أهل الدنيا بأضدادها، كذلك شاب عقولهم بالجنون، فلا يخلو العاقل فيها من ضرب من الجنون.⁹

1 المرجع السابق، 63.

2 المرجع السابق، 77.

3 المرجع السابق، 89.

4 المرجع السابق، 110.

5 المرجع السابق، 128.

6 المرجع السابق، 30.

7 المرجع السابق، 31.

8 أحمد خصصوي، الحمق والجنون، 20.

9 النيسابوري، عقلاء المجانين، 8.

ولذلك نجد عقلاء النيسابوريّ يتظاهرون بالجنون، وينعزلون عن المجتمع، ويلجؤون للخرابات والمقابر، لكنهم مع ذلك قاموا بالكشف عن زيف المجتمع وما فيه من مظاهر سلبية، فتراهم مثلاً بطريقتهم الفكاهية يفضحون ممارسات الحكّام الظلمة، ويُغلطون لهم القول دون أن يخافوا من بطشهم.

وذلك لأن الجنون الحقيقي عنده هو من ركن إلى الدنيا، وعمل بما وطاب بها عيشاً، وبذلك نطقنا الأخبار.¹

ومن منهج ابن حبيب أن يبيّن بلدان مجانين، فيستهل الكلام على كلّ واحدٍ منهم بذكر اسم بلده؛ فيقول: بصري، كويتي، واسطي، مكبي، مصري. كما ذكر طبقاتهم وأنواعهم، كما بيّن ذلك في مقدمات كتابه حيث قال: ونحن نذكر عقلاء المجانين، وطبقاتهم، ونعزوهم إلى بلادهم، ثم نذكر مجانين الأعراب، ثم المجانين من النساء، ثم نذكر أخبار من لا تثبت أعمارهم من المجانين.²

وبدأ كتابته بالحديث عن أصل الجنون في اللغة، ثم انتقل إلى الكلام عن أسماء الجنون في اللغة، فذكر له ثلاثة وعشرين اسماً، وبعد ذلك تناول الأمثال المضروبة في الحقيق والحمتى، بل إنه تحدّث عن بعض الحيوانات التي وصفت بالحقيق أيضاً.

ثم فصل القول في ضروب المجانين وذكر أنّ منهم المعتوه، والممرور، والممسوس، والعاشق، ومنهم من اعتقد بدعة أو ارتكب كبيرة فأدرّكه شوؤها فجُرّ، ومنهم من جُرّ خوفاً من الله تعالى، كما أن هنالك صنفاً منهم ادعى الجنون وهو صحيح العقل ليُخفّي شأنه، ويستتره عن الناس، ومنهم من تحامق ليطيب عيشه.

ثم شرع في ذكر نماذج من عقلاء المجانين، واستفتح كلامه بالمجيبين من المجانين العقلاء، ومن ذلك ما نقله عن أبي العباس الرازي أنه قال ذات يوم لأصحابه: ألسنت عندكم مجنوناً وأنتم أصحاء؟ زاد الله في جنوني وزاد صحتكم! ثم أنشد:

قالوا لجُنُوتٍ بمن تحوى فقلّث لهم ما لَدَّةُ العيش إلا للمجانين³

وفي مقدمة هؤلاء المجانين أصحاب العشق الإلهي، الذين أثرت أحوالهم على عقولهم، فاضطربت أفعالهم وأفعالهم، وسبب اختلالهم أنه بسبب وارد وردّ عليهم من المحبة أو المخافة أو الحزن أو الفرح، فأثّر عليهم، حتى انخرق مزاجهم، وهؤلاء نعدّهم، لكن لا يجوز الاقتداء بهم إلا فيما يوافق الشريعة.⁴

وأوّل من ذكرهم أويّس القرني فيقول: وهو من عقلاء المجانين قدس الله سره، وهو أوّل من نُسب إلى الجنون في الإسلام.⁵

ثم انتقل للحديث عن أهل العشق الديوي، ومنهم الشاعر قيس بن عامر _ الذي كان يُعرف بمجنون ليلى _ فأفرد له باباً، ذكر فيه شيئاً من شعره الذي يصف حبه الميؤوس منه.⁶

يتناول النيسابوري وجهة نظر بعض الناس في كون الجِدِّ والعقل لا يجلب المنفعة والغنى، بل ما يجلبهما هو الحقيق والجهل!، ويدلّل على ذلك بعرض نماذج هؤلاء الذين تحامقوا لنيل المكاسب الدنيوية، ومنهم أبو نصر التميمي الذي كان يقول:

إن كنت تحوى أن تنال المالا فالتبس من الحقيق غداً سِرّاً⁷

ويذكر أيضاً من تحامق طلباً للنجاة، كما حصل مع أبي الصلت عبد السلام بن صالح الفهري حينما استدعاه الخليفة أيام حجة خلق القرآن، وسأله عن قوله في المسألة، فقال: ما تقول في القرآن؟ فقال أبو الصلت: تعرّ يا أمير المؤمنين! قال: عمن ويملك؟! قال: عن "قل هو الله أحد" فإنه مات! قال: فكيف؟! قال: إن كان مخلوقاً فإنه يموت! فقال: مجنون أخرجوه، فأخرج فنجاً.⁸

وهو _ كابن الجوزي _ يؤكد على ضرورة الابتعاد عن صحبة الأحمق، كما نقل عن الأحنف بن قيس قوله: اجتنب صحبة التوكّي _ يعني الحمقى _ فإنهم لا يستقرّون على حال. وقال بشر بن عمرو اتق الأحمق فليس للأحمق خيرٌ من هجرانه.⁹

ثم ينتقل إلى الحديث عن عقلاء المجانين، وتميّز الكتاب بإيراده قصصاً تحكي لقاء هؤلاء المجانين بشعراء، وفقهاء، وعلماء، وأصحاب سلطة ونفوذ كالقضاة، والولاة، والأمراء، وكانت هذه القصص تنتهي دوماً بتفوق المجانين وغلبتهم.

ويؤكد النيسابوري على فكرة أنّ تعلّق العقلاء بالدنيا، وهذّب المجانين فيها؛ هو ما يعطي خطاب هؤلاء (المجانين العقلاء) القوة والمصداقية، فهم من وجهة نظر المجتمع مجانين في الدنيا، لكنهم في المنطق الديني عقلاء في الآخرة.

واعنى النيسابوري بعقلاء المجانين من النساء عناية خاصة؛ ومن هؤلاء رجحانة التي كانت تنشد:

صبرت عن اللذات حتى تولّيت وألرمت نفسي صبرها فاستمرّت

وما التفتس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطعمت تاقث وإلا تسلت¹⁰

ومنهم من استخدم الجنون قناعاً يحكّيه من التقدّر السياسي والاجتماعي بعيداً عن محاسبة السلطة وعصاها، كما حصل مع الرشيد عندما خرج إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ بصر بملولاً مجنوناً على قصبةٍ و خلفه الصبيّان وهو يركض، فقال: من هذا، قالوا بملول المجنون، قال: أدعوه لي من غير ترويع، فقالوا له: أجب أمير المؤمنين؛ فعدا على قصبته، فقال الرشيد: السلام عليك يا بملول، فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال: كنت إليك بالأشواق، قال: لكنني لم أشتق إليك! قال: عطني يا بملول، قال: وم أعظك؛ هذه قصورهم وهذه قبورهم، قال: زدي فقد أحسنت، قال: يا أمير المؤمنين؛ من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في جماله، وواسى في ماله

1 الحسن بن محمد ابن حبيب النيسابوري، عقلاء المجانين، تحقيق: عمر الأسعد، (بيروت: دار النفائس، 1407هـ/1987م)، 35.

2 المرجع السابق، 93.

3 المرجع السابق، 28.

4 مراسلون، "الشافعي روى ل300 شاعر مجنون والذهبي سمع نواجرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون".

5 النيسابوري، عقلاء المجانين، 44.

6 المرجع السابق، 47.

7 المرجع السابق، 35.

8 المرجع السابق، 39.

9 المرجع السابق، 43.

10 المرجع السابق، 122.

كُتِبَ في ديوان الأبرار، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً، فقال: قد أمرنا لك أن تقضي دينك، فقال: لا يا أمير المؤمنين، لا يُقَضَى الدَّيْنُ بدينٍ، أُرِدُّ الحَقَّ على أهله، وأقضى دين نفسك من نفسك، قال: فإنَّنا قد أمرنا أن يُجْرَى عليك، فقال: يا أمير المؤمنين أترى الله يعطيك وينساني؟! ثم ولى هارباً.¹

ويظهر الصبيان في كتاب النيسابوري دائماً على أنهم أعداء المجانين، تجرِي بينهم مطاردات تنتهي غالباً بتدخل أحد الراشدين، أو بقصة طريفة؛ ومنها ما رواه أن بملولاً (وهو أحد المجانين) حمل عليه الصبيان يوماً، فاتهم منهم فدخل دار بعض القرشيين وردَّ الباب، فخرج صاحب الدار فأحضر له طبقاً فيه طعام، فجعل يأكل ويقول: فطُرب لهم بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب.²

بهذا الشكل يرسم لنا النيسابوري بطريقة منهجية، صورةً كاريكاتوريةً يخلط فيها الجِدُّ بالهزل، والعقلُ باللاعقل، فنجد أنفسنا مراراً على حافة التناقض أمام سؤال: من المجنون ومن العاقل؟ هذا هو السؤال الذي يمكننا أن نعدّه حجر الزاوية في الكتاب، والدُّقَّة الموجهة لحركة الأفكار فيه، التي تتضمن ثنائيات: عاقل/مجنون، دنيا/آخرة، حياة/موت، تفريط/افراط، اسراف/زهد، ضحك/بكاء. هذه هي التقابلات التي يلعب على جملها صاحب كتاب عقلاء المجانين من أوَّل كتابه إلى آخره.³

4. الموازنة بين كتابي ابن الجوزي وابن حبيب

كلُّ من ابن الجوزي وابن حبيب كان مفسِّراً زاهداً، ويقوم بدور اجتماعيٍّ إصلاحِيٍّ لكوخهما إمامين واعظين إضافةً لكوخهما علمين بعلوم الشريعة، وكان لهما غايات وأهدافٌ مشتركةٌ من كتابتهما، ولعلَّ أهمُّها الترفية وملاطفة السامع، ورغبتهما بترويح نفوس السامعين بشيءٍ من اللهو المباح، فكان أدبُ النادرة والإمتاع خيرَ وسيلةٍ لذلك، فالشيءُ يُعْرِفُ بضدِّه، فإذا أدركنا حقيقة الحمق والغفلة، أدركنا أهمية الذكاء والفطنة، كما أنَّ هذه الأخبار تُدخل السرور على النَّفس، وتُزيل الهمَّ والغمَّ.

ونجد كذلك أنَّ كلا الإمامين كانا يهدفان إلى النقد الاجتماعي والسياسي والديني بأسلوبٍ غير مباشرٍ، مستخدمين قناع الحمق والجنون لذلك، فالمتجمع والسلطة يُجْزَآن ويُتَقَبَلان من هذه الفئة مالا يتقبَّلان من غيرها، وبذلك يكون النقدُ أخفَّ وقَعاً على السامع وأدعى لقبوله.

وفي طريقة العرض استخدم المؤلفان أسلوبَ رواية الأخبار بالأسانيد، وهي الطريقة العلمية الشائعة في ذلك العصر عصر المحدثين أمثال الحاكم والبيهقي وغيرهم. لكن ثمة فروقاً مهمةً بين الكتابين يمكن أن نلخصها بالآتي:

1.4. سبب تأليف الكتابين

إنَّ القارئ لكتاب النيسابوري يجده يُسْقِطُ الضوءَ على مجانينَ تجسَّدَ في أقوالهم الحكمة، فدلَّ عليهم بتسمية كتابه: "عقلاء المجانين"، بينما يعتمدُ الإمام ابن الجوزي إلى التنبيه على الجنون والحمق، حتى إنَّه يجعلُ العقلاء الذين يصرونَّ على الخطأ في زمرة الحمقى والمغفلين.

وسبق القولُ في الأسباب الدافعة لابن الجوزي لتصنيف كتابه؛ في الحثِّ على معرفة قدرِ نعمة الله تعالى وضرورة شكر المنعم، والتنبيه على اتقاء أسباب الغفلة إذا كانت داخلةً تحت الكسب، وترويح النفس بحكاية أحوال هؤلاء الناس.

فقد ذكر أخبار الحمقى والمغفلين ليعلم الناسُ على اتقاء تلك الصفة ومحاولة الابتعاد عنها وتجنبها، خاصة لو كانت مكتسبةً، وقد ينفع مع المحاولة والمران البعدُ عن التغافل، لكنَّه أخبرنا أيضاً أنَّ التغافل إذا كان في طبع الشخص وليس مكتسباً فلن يستطيع الإفلات منه أبداً للأسف.

أما كتاب النيسابوري فهو كتابٌ طريف في موضوعه، وضعه صاحبه نزولاً عند رغبة نفي من أصحابه، فقد أشار إلى ذلك في كتابه حيث قال: "ولقد سألتني بعض أصحابي عوداً على بدء أن أصنف كتاباً في ذكر عقلاء المجانين وأوصافهم وأخبارهم، وكنت أجتنبه إلى أن تماذى به السؤال، فلم أجد بداً من إسعافه بطلبته، وإجابته إلى بغيته، تحرياً لرضاه وتوخياً لهواه".⁴

2.4. موضوع الكتابين

لا يتحدَّثُ النيسابوري في كتابه عن أيِّ مجانين، بل يتناول طائفةً خاصَّةً منهم، وهم المجانين الذين نطقوا بلطائف الحكمة، ونوادير القول، وفيهم من ادَّعى الجنون وهو ليس كذلك بغية الوصول لمكسبٍ دنيويٍّ، أو طلباً للنجاة من مأزقٍ صعبٍ، وفيهم أيضاً من هو مجنونٌ في عُرْفِ الناس، لكنه في الواقع من المُتَأَلِّهين الذين استغرقوا في المحبة الإلهية، وآثروا الابتعاد عن الخلق، ولذلك سمَّاهم "عقلاء المجانين".

وقد سبق القول أنَّ ابن حبيب اهتم ببيان بلدان مجانينه وطبقاتهم وأصنافهم، فذكر ضروب المجانين، ومن تحامقَ ليناَل الغنى، أو لينعمَ بطيبِ المعيشة ويتكسب ويستترق، أو لينجُو من البلاء والأفات، ثم سرد أقواماً من عقلاء المجانين، وختم بمجانين الأعراب ثمَّ مجانين النساء، ثمَّ من لاتبثت أسماؤهم من المجانين.

أما ابن الجوزي فيتناول الحمقى والمغفلين على وجه العموم، ويقسمهم حسب خطورة الحمق الذي وقعوا فيه، إلى قسمين رئيسيين: حمقى الخاصة وهم الأخطر على المجتمع، من القراء والمصحفين والمحدثين، وأتبعهم بالقضاة والأمراء والولاة والكتَّاب، ثمَّ أتى على دُكْر طوائفٍ أخرى من حمقى المعلمين والقصاص والمتزهدين والأعراب وغيرهم.

أما القسم الثاني فهم حمقى العامة، وحمق هؤلاء عائدٌ عليهم، ولذلك فإن تأثيرهم أخفُّ من غيرهم.

وتلاحظ أيضاً أنَّ ابن حبيب لم يتطرَّق إلى مسألة الصفات الخلقية التي تدلُّ على الحماقة بخلاف ابن الجوزي، وكأنَّه لم يرَ لهذه الأوصاف تأثيراً في العقل زيادةً أو نقصاناً، وهذا ما رجَّحه الباحث فيما سبق.

3.4. النظرة لشخصيات الكتابين

يختلف المؤلفان بالنظر إلى الشخصيات التي أسقطا الضوء عليها؛ فابن الجوزي يذكر حمقاه ليحمل الناسَ على النفور من صفاتهم وأفعالهم، وبالنتيجة يدفعهم إلى اتقاء الأسباب التي تجعلهم يدخلون في عداد هؤلاء الحمقى.

1 المرجع السابق، 68.

2 المرجع السابق، 72.

3 مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة، "عقلاء المجانين"، (الوصول يناير 1987).

4 النيسابوري، عقلاء المجانين، 14.

بينما نظرة النيسابوري مجانبينه نظرة مختلفة، فالجنون عنده وإع لجنونه، مختار له، لاتعنيه نظرة المجتمع إليه، همُّهُ همُّ الجماعة، يشغله حب الله ومراقبته في جميع الأحوال، ومُحزَّنه فسَادُ ولاة الأمر، وفسادُ الدين، ترك الدنيا لأهلها، وانشغل بإعمار آخرته حراً مختاراً. وبالجملة فإنَّ القارئ للكاتبين يدرك بوضوح أنَّه تمُّه اختياراً شعورياً من قبيل كلِّ من المؤلفين للأشخاص الذين تناولهم في كتابه؛ فابن حبيبٍ انحاز لهم على جهة القبول والتعاطف، أما ابن الجوزي فقد انحاز لهم على جهة النفور والاستياء والتحذير. وفي حين نجد أن ابن حبيب قد اعتمد في ترتيب مجانبينه على بلدانهم وطبقاتهم، فإنَّ ابن الجوزي رتب كتابته حسب الطبقات الاجتماعية كالقضاة والوزراء والأئمة وغيرهم، وتعامل معهم على اعتبار أنهم طبقتان؛ الخاصَّة والعامة، وتدرج في بيان مراتب غفلتهم، فبدأ بالمغفلين من الجهلة بكلام الله تعالى، ثم الجهلة بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الجهلة بمصادر التشريع الأخرى، كما سبق بيانه في المباحث السابقة.

4.4. النساء في الكتابين

بالمقارنة بين النساء عند ابن الجوزي والنساء عند النيسابوري، نجد أنَّ النيسابوري أفرد للنساء المجنونات باباً خاصاً، وذكر منهن عشرة نساء، بينما أتى ابن الجوزي على ذكر النساء الحمقاوات في أبواب متفرقة من كتابه دون تمييزها في فصل مستقل. وكان الرابط المشترك بين مجنونات النيسابوري هو العشق الإلهي والزهد، بينما الحمقاوات عند ابن الجوزي يتميزن بالغفلة، وقلة الإدراك ومخالفة المنطق السليم. وفي الوقت الذي يصدمننا التصرف اللا منطقي للحمقاء عند ابن الجوزي — وهي لاتدرك حقيقتها — من أمثال ربيعة بنت عامر التي كانت تُعلمُ رأسَ أولادها بالقزع لتعرف أولادها من أولاد غيرها¹، فإننا نجد أنَّ مجنونات النيسابوري في كثيرٍ من الأحيان يدركن جنونهنَّ، ويختزنن أنفسهنَّ، وتجري الحكمة على ألسنتهنَّ، وبذلك يصدنَّ عليهنَّ تسمية عقلاء المجانين، ومن هؤلاء تلك المرأة التي كانت تُعرفُ بـ (حيونة) وقد طلعت عليها الشمس يوماً فأذنتها فقالت:

إن كنت تعلم أنني بكِ وَاِلهُ فاصرفْ سموَّ الشمسِ عني سيدي
قالوا: فعُتتِ السماءُ في الوقت.

وصامت حيونة حتى اسودت، فعوتبت في ذلك، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: قد لآمني خلقتك في خدمتك، فوعزتك وجلالك لأخدمتك حتى لا يبقى لي عصبٌ ولا قصبٌ. ثم أنشأت تقول:

يا ذا الذي وعد الرضى لحبيبه أنت الذي ما إن سواك أريد²

خاتمة

سعت المقالة إلى تسليط الضوء على ظاهري الحمق والجنون في العصر العباسي، كما سطرهما كتابا أخبار "الحمقى والمغفلين" للإمام ابن الجوزي، و"عقلاء المجانين" للإمام النيسابوري رحمهما الله تعالى، من خلال الوقوف على تعريف هذه الكلمات كما وردت في كتابهما، ودوافعهما لتأليف هذين الكتابين، سواء منها الظاهرة للقارئ كهدف الإمتاع والتسلية، أو التي يستطيع الباحث تلمسها من خلال قراءة متأنية كالتفقد السياسي والاجتماعي والديني. وأوضحت المقالة الفارق الأساسي بين الكتابين، فالنيسابوري انتقى مجانبينه انتقاءً دقيقاً، حيث امتازوا بالحكمة المتدفقة على ألسنتهم، والتقوى السارية في قلوبهم، وفي حين أنَّ حمقى ابن الجوزي كانوا على خلاف ذلك، فهم قليلو الإدراك، سريعو الإجابة، يمتازون بالجهل والتفريط في الدين واللغة وغيرها. ونستطيع القول في نهاية المطاف أن كتاب النيسابوري حمل في طياته مديحاً لشخصياته المجنونة، في الوقت الذي حمل كتاب ابن الجوزي دماً لشخصياته الحمقى، دماً شديداً يحمل السامع إلى السعي على اتقاء هذه الصفات ومجانبتها. وتدعو الباحثة الباحثين في التراث الإسلامي لتوجيه مزيدٍ من الاهتمام للمتون التي تناولت أخبار الحمقى والمجانين، لما حملت بين طياتها من محاولات للنقد الفكري والديني والسياسي.

1 ابن الجوزي، أخبار الحمقى، 62.

2 النيسابوري، عقلاء المجانين، 124.

المراجع

- بدران، وليد بدران. "اليوم العالمي للصحة النفسية: قصة أقدم مستشفى للأمراض النفسية في العالم". BBC NEWS. الوصول 10-10-2021. <https://www.bbc.com/arabic/science-and-tech-58856118>
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. أخبار الحمقى والمغفلين، تحقيق: عبد الأمير مهنا، (بيروت: دار الفكر اللبناني، 1410هـ/1990م).
- ابن حبيب النيسابوري، الحسن بن محمد. عقلاء المجانين، تحقيق: عمر الأسعد، (بيروت: دار الفانس، 1407هـ/1987م).
- ابن حبيب النيسابوري، الحسن بن محمد. عقلاء المجانين، تحقيق: محمد السعيد بسبوي زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1405هـ/1985م).
- خصوصي، أحمد. الحمق والجنون في التراث العربي من الجاهلية إلى أواخر القرن الرابع، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1413هـ/1993م).
- الديوب، سمير. "النائية وخطاب الحمق والجنون في التراث العربي". Hexa Times. الوصول 06-05-2023. <https://hexatimes.com/articles-view.php?id=101>
- الذهبي، محمد بن عثمان. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1407هـ/1987م).
- الذهبي، محمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م).
- الزركلي، خير الدين. الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، 2002م).
- الصفدي، خليل بن أبيك. الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط _ تركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، 1420هـ/2000م).
- الضَّرَاب، الحسن بن إسماعيل. عقلاء المجانين والموسوسين، تحقيق: إبراهيم صالح، (دمشق: دار البشائر، 1424هـ/2003م).
- أبو الطفيل، فيصل. "الحمق والجنون في مرايا الأدب العربي القديم". قضايا الأدب. 1/1 (كانون الأول 2016)، 67-78. <https://www.asjp.cerist.dz/en/article/80301>
- فوكو، ميشيل. تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة: سعيد بن كراد، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2006م).
- قزينة، رياض. الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، (بيروت: المكتبة العصرية، 1998م).
- مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة. "عقلاء المجانين". الوصول يناير 1987. https://mbrf.ae/ar/read/content_aakla-almjanyyn
- مراسلون. "الشافعي روى 300 شاعر مجنون والذهبي سمع نواذرهم.. مجانين العرب ثوار وأولياء وعاشقون". الوصول 10 أكتوبر 2019. <https://mourasiloun.com/node/9823>
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، (بيروت: دار صادر، د. ت.).